صداقة النساء

كتاب اصلاقي اجتماعي عربه عن الانكليزية فنشره تباعاً في المقتطف

وعزم ان يشيد لها على احدى الروابي الجميلة هيكلاً فخيماً يبقى لها اثراً حسناً يزول الدهر قبل زواله وبقي زمناً طويلاً يهيج في كيفية اتمام هذا المشروع وآلى على نفسه انفاق كل ماله من الثروة في سبيل انجاز هذا العمل ولكن المنية حالت دون ذلك بعد ان صرف سنة كاملة محجوباً عن العالم منقطعاً الى الزهد والتقشف والتحبب حزناً على ابنته

ان مرغريت روبرفخر وبهجة لوالدها السر توماس مور فكانت لقاء محبته لها تحترمه وتجله كثيراً واحبته من اعماق قلبها والذين قرأوا تاريخ حياة الشهيد الانكليزي الشهير لا يبرح من خاطرهم جمال تلك الصداقة فيقوّمها وشجاعتها فبر جسد والدها المقطوع الراس في دير كنيسة كيليسا (وذلك بعد ان بقي راسه معلقاً على عمود عند جسر لندن نحو من ١٤ يوماً) وحينما أمر بطرح الراس في نهر التيمس هرولت مرغريت وانتشلته وحفظته في علبة رصاصية واوصت احدى صديقاتها ان تدفن تلك العلبة معها في قبرها الخاص حين موتها

ونرى ايضاً صداقة حقيقية في سيرة جون ايفلين الشهير والطاهر الذيل والسيرة . قيل انه وهو يخطب مرة في جمهور كبير من الناس وجه كلامه الى ابنته الثالثة وقال « ان حبك لي وانحطافك نحوي وهيامك بي دلني على صدق ولائك واخلاصك كصديقة وكابنة » وعلى هذا النسق كتب وليم وورث عن ابنته لم تكن لي رفيقة الدرس فقط بل ملطفة ومخففة آلامي واتعابي وحينما كنت

الق في اشد الاحوال كدراً واتعاباً لم اكن في حاجة الى شيء سوى لمحة من وجه ابتي المحبوبة الجالسة قربي"

لم يصر حب وصداقة بين الاباء وبناتهم اعظم من حب وصداقة هارون بايز لابنته ثيوديسيا بايز . كان هارون رجلاً فيه صفات حسنة وذميمة معاً وصفه بعضهم بانه شيطان خبيث غير ان طمعه وحبه لذاته وتهوره وطيشه وانحطاطه وكامل صفاته القبيحة كست محبته لابنته جلباباً غريباً وحلة عجيبة فاختلاك صفات دنيئة كهذه لا يمنع امتلاك افضل الصفات التي هي اساس وركن الصداقة الشريفة والوداد الثابت بل دليل على ان المحبة الصادقة والوداد الحقيقي ولو كانا في قلوب مشحونة اقذاراً وفساداً لما خير واسطة لتطهير النفس وتوشيحها بجمال واهلية عظيمين — كان هارون دنيئاً من بعض الاوجه ودناءته هذه لم تؤثر شيئاً في عاطفة حبه لها فكان حليماً لطيفاً حكيماً متصفاً بما من شأنه توليد السرور والسعادة لابنته وهو ناموس طبيعي وجدني العالم فكثيرون من ذوي العقول الكبيرة والعلوم والفضل والاداب يأنفون من المخالطة ويكرهون الالفة ويبتعدون عن اظهار الوداد والصداقة ويبدون نفوراً واشمئزازاً من رسوم حبية وعادات ودادية يمارسها كثير من الناس بيد اننا نرى اعظم الاربياء الادباء الجهلاء ذوي حذاقة عظمى وحكمة في اداب السلوك وفن المعاشرة فيظهرون أدباً وتعقلاً ويخفون صفاتهم الذميمة ويعيشون معاً بسعادة وهناء لا يوصفان ولو احتقرهم غيرهم . كتبت مرة ثيوديسيا لابيها ما ياتي حينما اتامل بك وبصفاتك ياسيدي ولما المح بشجاعتك الفائقة اتصورك اعظم واسمى الرجال اتامل بك وانا في حالة بها احترمك واجلك وافتخر بك واستحسن فضائلك فتتجلى ساعتئذ محامدك الشريفة ومحاسنك لدى عيني فيزيد هيامي بك لدرجة لا تقصر عن درجة العبادة فارفعك على كل من سواك .

وسبب هذا التأثير الحاصل في نفسي هو فضائلك السامية ومروءتك العظيمة وحينما انظر الى ذاتي واري نفسي واوصافي تصغر ذاتيتي في عيني ازاء ذاتيتك واخلاقك الكريمة وحينما ابتعد عنك تعظم نفسي في عيني فاعجب بها كثيراً وما بي من الكرامة والجمال ناشيء عن اتحادنا معاً واني لو لم اكن ابنتك لكنت آثرت الموت على الحياة عند غيرك من الناس »

كتب لها مرة وهو يستعطفها ممتنون « انني مدين لك يا ابنتي العزيزة لاجل ما وهبتني من السعادة العظيمة التي تمتعت بها في حياتي فكنت سبب فرحي وعلة حصولي على كل ما اتمناه من مشتهيات هذه الحياة » كتب هذه السطور وادفع للبارزة فكأن تلك السطور زادته قوة وشجاعة فتغلب على خصمه وقتله وبقي حياً هو ليقتل كثيرين غيره ويحمل حملاً ثقيلاً من العار والملامة لو حل على عاتق غيره لسحقه لا محالة

اقلعت مرة ابنته في مركب صغير من تشارلستون ولم يعد يسمع عنها شيء فظن البعض انها غرقت عند كاب هاتراس قال والدها آسفاً « ان خسراني ابنتي علة انفصالي عن العالم البشري » وعاش بعد وفاتها عيشة الطهارة والسعادة وتقوى تنيراً كلياً وتحول مجرى حياته الدنس الى مجرى مقدس وانفجر في قلبه ينبوع داخلي غسل القلب من اقذاره وجلاه فصارت الطهارة والنقاوة تشفان من فؤاده

وحسناً ما فعله بارتن بتقديمه كتاب « تاريخ حياة بابر » الى ابنته تيوديسيا وحينما قرأ القانوني الشهير روفوس كوايت ذلك الكتاب قال — حقاً انه لم يكن لبابر شيء من الصفات الحسنة ازاء تلك الصفات الذميمة الماثلة قلبه حتى انه لم يتظاهر ان له عاطفة الحب الشريفة وذلك لكثرة سيئاته وافعاله الرديئة » غير ان ذلك الانسان الفاقد العواطف السامية لم يفقد عاطفة الاخلاص والحب نحو

ابنته فكان حبه بقعة منيرة في ساحة حياته المظلمة وشعاعة ذهبية في تاريخه المملوء عاراً ومذمة

وصداقة ماريا اديجورث لوالدها ريتشارد ممزوجة باسمى عواطف المشاركة والاتحاد فجمعتهما معاً وحدهما المتبادل ونصبا حبهما المشترك وسرورهما وانعامهما برسم لنا افضل الصور العائلية

جاء في مقدمة « تاريخ حياته » الذي الفى مسألة اكماله وطبعه على عاتق ابنته ما نصه « اذا وجدت ابنتي في هذا الكتاب شيئاً من النقص او من المبالغة ان افراطاً او تفريطاً اتق ان حاسياتها تنجرح فيسوءها ذلك وينتدي. ممتدئذ في تغيير وحذف ما ترى مناسباً تغييره وحذفه لانك اثقل طبعاً محبتها لي وثقتها بي واعتبارها اياي » فهل يبقى اذاً ادنى ريب عند القارىء بصحة محتويات ذلك الكتاب؟

قالت مرة ابنته ماريا التي اعتقد ان اناساً قليلين تمتعوا باللذة والسعادة اللتين نلتهما نتيجة ارشادات ونصائح ورفقة والدي وثقتي الغريبة به ومحبتي العظيمة له فكان لي منذ ادركت سن الرشاد خير صديق وافضل والد بل وموضوع كل اماني وأمانيّ »

ومن هذا النوع صداقة مدام دي ستال لابيها نكر فكان والدها رجلاً حراً في مبادىء مستقيماً في افعاله لطيفاً في سلوكه ومعاشرته مقتدراً في عقله وكلامه فشغل مركزاً رفيعاً ولعب دوراً مهماً في عصره — اشتهرت ابنته بذكائها ومحبتها لابيها وعلاقاتها معه كانت العاطفة المتملكة حياتها وعقلها وقلبها فشاركته بواسطة لطفها واقترابها وبشاشتها وحبها في افكاره وسعة اطلاعه فكانت له خير مصدر للقوة والمشورة والتعزية. حكي عنها قصة هزلية ولكنها حقيقية تفي بالمراد لانها تشف عن تعلقها الغريب بابيها وانشغافها الكلي به